فؤاد كامل

«إن بين الموت والحياة الدائمة معركة هائلة تنتج أكبر تشويه رهيب أواجهه فى صدرى، إن فى أغوار كل شىء روحا تدب فيه.. كل شىء حتى الجماد».
فؤاد كامل

ويعود بنا حديثنا عن فؤاد كامل إلى ذات الحديث القديم عن هؤلاء البرجوازيين الصغار من الكتاب والفنانين الذين استخدموا كلمات حادة مدببة مليئة بالسخط الذى يخيل إليك أنه شجاعة، ومفردات عنيفة لم يسبقهم إليها أحد، ولا تحتملها الأوضاع العامة للجماهير، بل ولا يحتملون هم نتائجها، فما إن يواجهوا ردود فعل السلطة حتى ينسحبوا دون تردد، البعض يهاجر والآخرون يصمتون، وقد بدأ فؤاد كامل رحلته صامتا، ربما كان خائفا، وربما كان مترددا، لكنه نطق.. نطق مرة واحدة ثم صمت حتى النهاية.

وكانت جماعة «الفن والحرية» قد أرادت التحول من منتجع للفن السيريالى إلى حركة ثورية سياسية فرشحت فتحى الرملى الذى كان قد أسس جماعة مصرية خالصة أسماها «نحن أنفسنا» تمايزا عن الثقافة الفرانكفونية ورجالها. رشحته الجماعة فى انتخابات مجلس النواب (١٩٤٤). ويبدو أن المثقفين البرجوازيين الصغار خشوا على أنفسهم من هذه المعركة فاختاروا شخصا آخر، ألبسوه أفرولا ليصبح عاملا وأنفقوا على معركته الانتخابية ونظموا له مؤتمرا انتخابيا فى دائرته الانتخابية «السيدة زينب». ويروى لويس عوض قصة هذا المؤتمر الذى عقد لأول مرشح اشتراكى فى تاريخ مصر الحديث.. «فى هذا الاجتماع وجدت هناك أنور كامل ورمسيس يونان وجورج حنين وبولا العلايلى وعشرات من أقطاب اليسار، تعاقب الخطباء وكان أكثرهم معتدلا فى كلامه حتى وقف فؤاد كامل وألقى كلمة عنيفة ندد فيها بالأخطبوط الرأسمالى، وطالب بتقطيع أرجل الأخطبوط، وقال كلاما كثيرا يعاقب عليه القانون، وتكهرب الجو، ولا أتذكر كيف تدخل

البعض لفض الاجتماع خشية أن يتدهور الموقف، لكن المجتمعين قرروا الخروج فى مظاهرة فى شوارع القاهرة، وهكذا خرجنا نحو العاشرة مساء ولم يكن عددنا يزيد على مائتى شخص، أكثرهم من الكتاب والفنانين، وسرنا ونحن نهتف: «الأرض للفلاحين والمصانع للعمال والحرية للجميع، تحيا وحدة المثقفين والعمال» (ذكريات بعيدة - ص١٢٤)، ويكمل د. مجدى وهبة الحديث: «ووضع البوليس نهاية للحادث فصادر منشوراتنا وضربنا فى مزاح ثقيل»، وإلى هنا تنتهى ثورية فؤاد كامل. مزاح بوليسى ثقيل أفرغ من صدره كل رغبة فى أى فعل سياسى، وتفرغ للفن. والبداية كانت كالعادة مع الرائد يوسف العفيفى مدرس الرسم فى السعيدية الثانوية. ثم حصل على دبلوم المدارس العليا للفنون الجميلة، ثم دبلوم المعهد العالى للتربية الفنية، ويعين مدرسا للرسم فى مدرسة ثانوية، ورغم موهبته الفذة فى فن البورتريه إلا أنه رسم أساسا لوحات سيريالية، وذات يوم سأله ناقد فنى كبير عن تفسير للوحة من الخربشات ذات الألوان المتقاطعة، فرد فؤاد كامل: «لقد حاولت أن أعبر عن مشاعر الكرسى عندما تجلس عليه»، ويعلق الناقد جون باستيا على هذه العبارة قائلا: «نحن واثقون بأن الكرسى لو استطاع أن يعبر عن مشاعره لاحتج على محاولات وتفسيرات فؤاد كامل» (البروجريه إجيبسيان - ١٩٤١/٣/١٦). وعندما أقام معرضه الثانى صرح للصحفيين: «سأكون شاعرا عندما لا أجد ما أشترى به الألوان»، وفى كتالوج المعرض الثانى للفن المستقل يكتب: «للمرأة، كلحن موسيقى أثر فعال فى خلق أجواء صدرى، يوم صاحت فى أعماقى، يا أختى الشجرة ويا أخى الحجر، غمرنى فى الوقت نفسه قانون الوجود الواحد فى كل شىء، وشعرت بالتناسق الغريب الذى يربط ويخضع كل كائن فى نظام دقيق ومعجز، وقد أصبحت لا أقلق عندما لا أفرق كثيرا بين شعر حصان وشعر امرأة، أو بين مقعد وجسم بشر، إن بين الموت والحياة الدائمة معركة هائلة تنتج أكبر تشويه رهيب أواجهه فى صدرى، إن فى أغوار كل شىء روحا تدب فيه حتى الجماد».

أما كامل التلمسانى فيتحدث عن رسوم صديقه وزميله فؤاد كامل قائلا: «لجج من ظلمات، عالم مظلم يبقى يوما بعد يوم، ومتجردا من الشمس وسيظل كذلك حتى نهاية الحياة، لجج من ظلمات، فالرجال مصابون بالعمى لأن عيونهم تظهر كل درجات الرؤية والتلوين ولا تصل إلى الغوص فى أعماق الحب الإنسانى، كل فرد يمتلك عيونا واسعة

أحيانا وضيقة أحيانا، عيونا سوداء بلا إبصار، زرقاء بلا إبصار، خضراء بلا إبصار، إنه إخراج ممتلئ بالعاطفة المشبوبة يعلن بها فؤاد كامل أنه يحب الإنسانية المطلقة، وحده فؤاد كامل قادر على أن يمنحها غذاء، هو الذى اصطدم بهذا العالم، وعانى كل أهوال الألم الذى جعل صمته جسدا من كل عضو صامت فى عائلة الأوجاع» (مقال بالفرنسية مجلة دون كيشوت – ١٩٤٠/١/١٨). وهكذا تنبأ كامل التلمسانى بصمت زميله صمتا مطبقا فى عالم السياسة.

وتثير رسوم فؤاد كامل عاصفة من النقد فتنشر مجلة «الرسالة» «إن الجماعة التى تسمى باسم الفن والحرية لا تفهم الحرية إلا على أنها فوضى لا ضابط لها ولا قانون. كما أن مسايرة الفن الأوروبى فى تخبطاته الأخيرة ليست حرية.بحال من الأحوال بل هى عبودية عمياء». ثم يشير الكاتب فى سخرية إلى بيان جماعة «الفن والحرية» الذى هاجم هجوم هتلر على بعض الرسوم متهما إياها بأنها فن منحط فأصدرت الجماعة بيانا عنوانه «يحيا الفن المنحط» ويقول: «إننى أؤكد بكل قواى أن هذه الرسوم هى بالفعل فن منحط» (الرسالة – العدد ٣١٦ – مقال نصرى عطا الله سوس). ويرد نيابة عن فؤاد أخوه أنور كامل فى رسالة إلى مجلة «الرسالة» قائلا: «والمجتمع المصرى بحالته الراهنة مجتمع مريض مختل، فقد الاتزان لا فى مقاييسه الخلقية فحسب بل فى أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية أيضا» (مجلة «الرسالة» – العدد ٣٢١).

.. وهكذا وبعد مغامرة نطق واحدة لجأ الفنان الثورى البرجوازى الصغير إلى صمت مطبق على مدى الحياة، وتفرغ للفن، وإفراغ كل غضبه فيه، فتفوق وشارك فى معرض السيريالية الدولى فى باريس (١٩٤٧)، وفى معرض الفنانين العرب الذى أقيم فى أمريكا (١٩٤٨) وحصل على الجائزة الأولى، وفى عام ١٩٦٠ حصل على منحة تفرغ من وزير الثقافة «د. ثروت عكاشة»، وفى عام ١٩٦٨ حصل على الجائزة الأولى فى بينالى الإسكندرية.. واكتفى بذلك ورحل.